الأربعاء: 2023/11/29
التوقيت: 14:50 – 16:20
عن بعد

الدرس رقم 09: الاستشراق والنثر القديم

لقد اختلف العلماء من عرب ومستشرقين حول نشأة النثر ووجوده، إذ اعتبر "جيب" بأنه لا يعقل وجود آثار نثرية للجاهليين لم يبق لها أثر أو ذكر، وأنكر الآراء التي تقول بتلك الآثار على أنها لا تستند إلى براهين مقنعة وعلى أن النقوش والكتابات التي عثر عليها في مملكة الحيرة ليست برهاناً ثابتاً على وجود الأدب النثري في الجاهلية.

كما نجد المستشرق "ناللينو" أنكر كذلك وجود النثر في العصر الجاهلي وهذا لا يمكن تصديقه لأن الآثار القديمة التي وجدت في الحيرة أثبتت وجود النثر في العصر الجاهلي، حيث أوعز ذلك إلى عدم معرفة الجاهليين بالخط أو إلى وجود قلة من الذين يعرفونه، فإذا كانت صناعة الخطّ مجهولةً أو قلّ استعمالها فلا سبيل إلى إبقاء المنثور وحفظه من ورود التغيير والنّقص والزيادة في ألفاظه وعبارته فبتغير العبارة والألفاظ يضيع ما كان فيه من العذوبة والرشاقة والأناقة ولا يبقى إلا كلام ركيك معتاد لا يُعد من المستظرف.

نجد من خلال هذا القول انكار وجود النثر، وحتى وإن وجد فإن هذا النثر تعرض للتحريف والتغيير ويرجع ناللينو ذلك إلا عدم وجود الكتابة أو لندرة استعمالها وهذا ما عرض النثر إلى تغيير ألفاظه وعباراته وأنتج نثر أقل ما يقال عنه أنه نثر ركيك وهذا غير صحيح لأن العرب عرفوا الكتابة في العصر الجاهلي والقول بأن صناعة الخط كانت مجهولة أو قليلة الاستعمال غير صحيحة هذا من جهة، ومن جهة أخرى يمكن القول حتى بعض أنواع النثر كانت محفوظة في الشعر مثل: الأمثال والحكم، وأيام العرب، ولقد قال ابن قتيبة "وللعرب الشعر الذي أقامه الله تعالى لها مقام الكتاب لغيرها / وجعله لعلومها مستودعا ولآدابها حافظا ولأنسابها مقيدا ولأخبارها ديوانا لا يرثّ على الدهر، ولا يبيد على مر الزمان.

وحرسه بالوزن والقوافي وحسن النظم وجودة التحبير من التدليس والتغيير فمن أراد أن يحدث فيه شيئا عسر ذلك عليه ولم يخف له كما يخفى في الكلام المنثور" من خلال هذا الكلام نجد إشارة واضحة أن الشعر حمل في جعبته الكثير من العلوم والآداب فهو ديوان العرب كما قال عمر بن الخطاب؛ ومن الأنواع النثرية فلا تكاد تخلو قصيدة من القصائد العربية من هذه الأنواع: كالأمثال والحكم وأيام العرب والقصص.

ومجمل القول حسب المستشرق نالليو أن العرب في الجاهلية لم يخرجوا في النثر عن قدر الإنشاء القصير والمقطعات فلو جاز قياس كتاب ديني جليل بسائر التصانيف لقلت إنَّ أول كتاب مطوّل صدر بلغة الناطقين بالضاد كان القرآن الشريف.

إن القول بأن النثر في الجاهلية لم يخرج عن الإنشاءات القصيرة والمقطعات هو مغالطة، ثم إن القول أن أول كتاب عرفه العرب هو القرآن هذا غير صحيح، حيث ذكر بلاشير قولاً لحماد الراوية أن: "ملك الحيرة النعمان بن المنذر المتوفى سنة 602م أمر فنسخت له أشعار العرب في الطنوج وهي الكراريس ثم دفنها في قصره الأبيض فلما كان المختار بن أبي عبيد الثقفي قيل له إن تحت القصر كنزا فاحتفره فاخرج تلك الأشعار، فمن ثم أهل الكوفة أعلم بالشعر من أهل البصرة". وهذا دليل على أن العرب كان لها كتبا قبل القرآن الكريم وهي تتمثل في كراريس وجدت لاحقا بعد التنقيب عنها في القصر الأبيض للنعمان بن المنذر مالك الحيرة.

فأما إن فهم من النثر كل كلام لا ينظمه وزن ولا قافية فليس من شك في أن قد كان للعرب الجاهليين نثر منذ عصور قديمة جدا، وليس من شك في أنهم تخاطبوا بالإشارات والكلمات والجمل المقتضبة قبل أن يظهر فيهم الشعور الفني الذي يحملهم على أن يتغنوا ويقرضوا الشعر.

هذه بعض آراء المستشرقين حول النثر القديم الذي لم يأخذ حضا وفرا من الدراسة حتى من الكتاب العرب أنفسهم أنذك، وكانت الحجة أن الأدب قديما كان شفهيا يصعب حفظهم عن طريق الرواية فما بالك النثر، وعليه النثر القديم لم يوثق ولم يدون وهذا لا لشيء إلا لأن توثيقه وتدوينه صعب نظرا لصعوبة الكتابة في تلك الفترة من الزمن ومن جهة أخرى عزوف الرواة عن رواية النثر نظرا لصعوبة حفظ النثر بعكس ما كان عليه الشعر من رواية وتدوين نظرا لخفته على اللسان وسهولة حفظه من الرواة، وهذه الصعوبة ليست بالنسبة للنثر فقط، فحتى القرآن الكريم والأحاديث تأخر جمعها وتدوينها إلى عهد الخلفاء والتابعين نظرا لصعوبة الكتابة وبالتالي التدوين.